جزاء النبيين والمرسلين

□ جزاء النبيين والمرسلين □

○ سيد ولد آدم رسول الله ﷺ ○

إن القلم ليعجز في هذا المقام ، وإن قميصًا نسج من ثمانية وعشرين حرفًا عن وصفه يقصر .

وعلى تفنن مادحيه بمدحهِ يفنى الزمانُ وفيه ما لم يُوصَفِ

تسلّينا عنه بالحلم فجهلنا قدره .

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلقِ الله كلِّهِمِ

وهل يستطيع قلم أن يعدد جزاء رسولنا ﷺ على عملة وجنس عمله ؟! فاللهم عذرًا .

إن النبي ﷺ إمام الزاهدين ، عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردّها ، وقال : « بل أشبع يومًا ، وأجوع يومًا »[1] .

وراودته الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيما شَمَمِ

وروى الإمام أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : دخلت عليّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنيَّة ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ ». فقلت : فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك ، فبعثت إليَّ بهذا ، فقال : « ردّيه » . فلم أردَّه ، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : « يا عائشة ، ردّيه ، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذّهب والفضة » . فرددته[2] .

وقال ﷺ : «لو أن لي مثل أحد ذهبا ما سرّني أن تأتي عليَّ ثلاث ليال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود . (٢) صحيح : رواه أبو داود .

وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدَيْن »[١] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : تُوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي ، بثلاثين صاعًا من شعير[٢] .

ونبي الله ﷺ ما أكل على خوان قط ، وما رأى شاة سميطًا قط ، وما رأى منخلا منذ أن بعثه الله إلى يوم قبض . ما أخذ من الدنيا شيئًا ، ولا أخذت منه شيئًا .

وصدق ﷺ إذ يقول : « ما لي وللدنيا ، إنما أنا كراكب استظل بظلّ شجرة ، ثم راح وتركها » .

وروى ابن كثير من حديث أبي مويهبة – مولى رسول الله ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فَخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة » . قال : فقلت : بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : « لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة »[٣] .

وقال ﷺ في مرضه : « يأيها الناس ، إن عبدًا من عباد الله قد خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » . ففهمها أبو بكر – رضي الله عنه – مِنْ بين الناس فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا[٤] .

فماذا كان جزاؤه ؟ وهل هو من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلي عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٣) البداية والنهاية (٥ / ١٩٧) .

(٤) البداية والنهاية (٥ / ٢٠١) .

فمنْ سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة »[١] .

وقال ﷺ : « الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة » .

لما كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا كان جزاؤه أن يكون أول قارع للجنة ، وأعلى الناس فيها منزلة .

قال ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ . فأقول : محمد ، فيقول : بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك »[٢] .

وقال ﷺ : « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأُقعقعها »[٣] .

وقال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع ولا فخر »[٤] .

فجزاؤه من جنس عمله .

احفظ الله يحفظك :

كذّبه قومه فسلّمت عليه الأشجار والحجارة والجمادات بالنبوة .

قال ﷺ : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث »[٥].

لما كذّبه الكذابون كان أكثر الأنبياء تصديقًا من الصادقين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن أنس .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي عن أنس .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد ، ورواه ابن حبان عن عبد الله بن سلام .

(٥) رواه مسلم وأحمد والترمذي عن جابر بن سمرة .

قال ﷺ : « أنا أول شفيع في الجنة ، لم يُصدق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد »[١] .

ادّعوا خيانته ، وأنه يأتي بالقرآن مِنْ قبل نفسهِ ، فأتى خبر السماء ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إنْ هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وقال ﷺ : « أما والله ، إني لأمين في السماء ، وأمين في الأرض »[٢] .

لمّا قالوا : إن له رئيًّا من الجنّ ، يأتي إليه بالقرآن ، فقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك ؟ قال : « وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »[٣] .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟. قال : « وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم »[٤] .

وانظر أخي ، كيف يكون الجزاء العاجل في الدنيا لأطهر قدمين وطىء بهما ثرى الأرض ؟؟ وكيف نالهما الأذى في ذهابه ﷺ إلى الطائف ؟؟.

فيما رواه الإمام ابن كثير عن موسى بن عقبة :

وقعد أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه ، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب ، وفي ذلك الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة . فماذا يكون الجزاء ؟.

سلوا عدّاسا عن أطهر قدم دميت في سبيل الله ، والكل يعلم ما جرى

---

(١) رواه مسلم عن أنس .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن ابن مسعود .

(٣) رواه مسلم عن عائشة .

(٤) رواه مسلم عن عائشة .

بين عدّاس مولى ابن ربيعة وبين النبي ﷺ ، فقد [أكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قالا له : ويلك يا عدّاس ، مَالَكَ تُقَبِّلُ رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟.][1] إنه ما يفعل هذا بسيده أبدا . فهذه القدم التي أصابها ما أصابها ، وسالت منها الدماء تُقَبل ، والجزاء من جنس العمل .

عذابه فيك عـذبُ ... وبعده فيك قـربُ
وأنت عندي كروحي ... بل أنت منها أَحَبُّ
حسبي من الحب أني ... لمـا تـحب أحبُّ

وفي السنة السادسة من الهجرة رجع رسول الله ﷺ من الحديبية ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ؛ ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة منهم عمر رضي الله عنه .

يقول ابن كثير :

لما كان أطوع خلق الله لله ، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » . فلما أطاع الله في ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله له : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ... ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] . أي في الدنيا والآخرة ﴿ ... **ويهديك صراطًا مستقيمًا** ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ **وينصرك الله نصرًا عزيزًا** ﴾ [الفتح : ٣] بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله

(١) البداية والنهاية (٣ / ١٣٤) .

وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . فرسولنا ﷺ لما منعوه من دخول مكة وحبسوه عنها ، وأجابهم للصلح تعظيمًا لحرمات الله ، سمى الله هذا الصلح فتحًا ؛ مع أن الفتح يكثر إطلاقه على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب ، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض ، فيقال : فتح خيبر ، وفتح مكة . ولا يقال : فتح بدر ، وفتح أحد .

قالوا عنه : إنه الأبتر : ولنا هنا معهم وقفة :

قال تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾ [الكوثر : ١ -٣] .

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ . فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

والكوثر : صيغة من الكثرة ، وهو مطلق غير محدود ، يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه السفهاء ﴿ **إنا أعطيناك** ﴾ ما هو كثير فائض غزير ، غير ممنوع ولا مبتور ، فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ، فهو واجده حيث نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة ، في هذا الاتصال بالحق الكبير ، وماذا فقد من وجد الله ؟.

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه ، وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته ، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته .

---

(١) البخاري تفسير سورة الكوثر ، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضًا .

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه ، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون في أرجاء الأرض ، وفي الملايين بعد الملايين على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه ، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ؛ سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض .

وهو واجده في مظاهر شتى ، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها .

إنه الكوثر الذي لا نهاية لفيضه ، ولا إحصاء لعوارفه ، ولا حد لمدلوله ، ومن ثم تركه النص بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد .

ونهر رسول الله ﷺ هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول ، فهو كوثر من الكوثر ، وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات[١] .

فانظر يا أخي ، كيف جازى الله نبيه بنقيض ما وسمه به الكافرون .

وانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال تعالى : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر ، بل هو صاحب الكثير ، وفي هذه الآية يرد على كائديه ويؤكد سبحانه أن الأبتر ليس هو محمد ﷺ . إنما هم شانئوه وكارهوه .

قال تعالى لنبيه : ﴿ **وإن لك لأجرًا غير ممنون** ﴾ [القلم : ٣] أي غير

---

(١) الظلال (٦/ ٣٩٨٧ - ٣٩٨٨) .

مقطوع عنهم .

قال ابن كثير :

إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ، ولا يبيد ؛ على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم .

قال سيد قطب :

إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأزل المنقطع ذكره .

قال ابن عباس ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . كان العاص إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك ، انقطع ذكره ، فأنزل الله هذه السورة .

وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضًا وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

روى البزار بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبَر[1] المنبتر عن قومه ؟. يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ وهذا يعم جميع من اتصف بذلك .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذِكْره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًا على دوام

---

(١) نبت في جذع النخلة ، إذا قلع انقطع ؛ وكذا محمد إذا مات فلا عقب له .

الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد[١].

يقول الشيخ سيد قطب معلقًا على كيد الكافرين لرسول الله ﷺ ، ووسمه بأنه الأبتر :

كان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعًا ، وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله - ﷺ - وشانئيه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ، ومسّته بالغم أيضًا .

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير والباقي الممتد الذي اختاره له ربه ، وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله ، فقد انقطع ذكرهم وانطوى ، بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا ، ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون .

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر ، فهو ممتد الفروع ، عميق الجذور ، وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر ، مهما ترعرع وزها وتجبر .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر ، ولكن البشر ينخدعون ويغترون ، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ، وأمامنا هذا المثل الخالد ، فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد ، وقطعوا عليه الطريق ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٢٤ -٥٢٥) .

أين هم ؟ وأين ذكراهم ؟ وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه الأبتر[١]؟! .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح : ٤].

قال مجاهد : لا أذكر ، إلا ذكرت معي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها ..

ورفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .

رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله ، كأنما تحركت به الشفاه : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والحب العميق العظيم .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر ، لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود[٢] .

قال حسان :

ضمَّ الإلُه اسمَ النبي إلى اسمه　　　إذ قال في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ

---

(١) الظلال (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) الظلال (٦ / ٣٩٣٠) .

وشق له من اسمه ليجلَّه فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وقال الشاعر :

ألم تر أنَّا لا يصح أذاننا ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

○ نوح عليه السلام ○

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ٧٨ - ٨٠] .

قال جماعة من المفسرين ، منهم مجاهد وغيره : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ الثناء الحسن ، ولسان الصدق للأنبياء كلهم . وهذا قول قتادة أيضًا ..

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أبقى الله عليه ثناءً حسنًا .

قال ابن القيم : معلوم أن هذا السلام فيهم هو سلام العالمين عليه ، كلهم يسلم عليه ، ويثني عليه ، ويدعو له .

وأما سلام الله عليه فليس مقيدًا بهم ، فالله سبحانه وتعالى أبقى على أنبيائه ورسله سلامًا وثناءً حسنًا فيمن تأخر بعدهم ، جزاءً على صبرهم وتبليغهم رسالات ربهم ، واحتمالهم للأذى من أممهم في الله . وأخبر ان هذا المتروك على نوح هو عامٌّ في العالمين ، وأن هذه التحية ثابتة فيهم جميعًا ، لا يخلون منها ، فأدامها عليه في الملائكة والثقلين طبقًا بعد طبق ، وعالمًا بعد عالم ، مجازاةً لنوح عليه السلام بصبره ، وقيامه بحق ربه ، وبأنه أول رسول أرسله إلى أهل الأرض . وكل المرسلين بعده بُعثوا بدينه ، كما قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ...** ﴾[1] [الشورى : ١٣] الآية . كذبه المشركون وسخروا منه ، وهو

---

(١) التفسير القيم جمع محمد أويس الندوي ص ٤١٢ - ٤١٦ ، مكتبة السنة المحمدية .

يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكان هذا الجزاء مقابلًا لسخرية هؤلاء . شتم وسخرية واستهزاء تقابل بثناء وسلام ومدح ودعاء .

○ خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ○

قال ابن عباس : ما قام أحد بدين الله كله إلا إبراهيم عليه السلام قدّم بدنه للنيران ، وطعامه للضِّيفان ، وولده للقُربان .

قال الله تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ -٦٩] .

احفظ الله يحفظك :

﴿ **قالوا حرقوه ...** ﴾ ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد ؛ ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد .. ﴿ **كوني** ﴾ هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] [يس : ٨٢] .

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق وآزر ، ثم بعث إليه البيان فأعان وَوَازر ، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ، ولم يتزود إلا التسليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

عبد بذل نفسه لنا ، فبلَّغناه منا المُنَى ، وعرَّفناه المناسك عند البيت ومِنى ، ولما رمي في النار لأجلنا ، قلنا لها بلسان التفهيم : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

قدَّم ماله إلى الضِّيفان ، وسلَّم ولده إلى القربان ، واستسلم للرمي في النِّيران ، فلما رأينا محبًّا في بيداء الوجد يهيم ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على**

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٨٧) .

إبراهيم ﴾ .

ابتليناه بكلماتٍ فأتمهنّ ، وأريناه قدرتنا يوم ﴿فَصُرْهُنَّ ...﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وكسّر الأصنام غيرة لنا منهنَّ ، فلما أُججَتِ النَّار ذهبت بلطفنا حرارتُهنَّ ، وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

بنوا له بُنيانا إلى سفح جبل ، واحتطب من أجله من شرب وأكل ، وألقوه فيها ، وقالوا : قد اشتعل ، فخرج نمروذُ ينظر ماذا فعل ، وقد خرج توقيع القِدَمِ مِن العليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

اعترضه وتعرّض لحوائجه المَلَك ، حين قطع بيداء الهوى وسلك ، فقال له بلسان الحال : مَعِي مَنْ مَلَك ، إياك والتعريض بما ليس لك ، فلمّا لم يتعلّق بخلْقٍ دوني إذّ أُضيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تعرضت له الأملاك فكّفها كفًا ، فلما رأيناه لا يمدُّ إلى غيرنا كفًّا ، مدحناه ويكفي في مدحنا له ﴿ **الذي وفّى** ﴾ [النجم : ٣٧] ، واجتمع الخلائق صفًا ، ينظرون من صفًّى ، فلما أتانا بقلب سليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تنحَّ يا جبريل فماذا موضعُ زحمة ، وخلّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلتُ له إلا لَحَمْةً تُبْلَى أو شَحْمة ، فلمّا وطّن نفسه على أن يصير فحمة ، وحُوشي من ذاك الكريم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

كانت الأملاك تدَّعي الفناء بالطاعة ، فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة ، وشاهدوا يوم الخليل ما ليس لهم به استطاعة ، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه ، رأيناه ساكنًا والأملاك في مُقعد مقيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾[١] .

---

(١) التبصرة (١ / ١١٦ - ١١٨) .

جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا ، إذ لمّا كان سليمَ القلب من الأغيار ، وجد سلامة النفس من البلايا والأعلال ، ومن كان مشغولًا بالله لم يتول الانتقام له إلا الله .

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « أول من يكسى من الخلائق إبراهيم »[1] .

قال ابن حجر :

يقال : إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك ، لكونه ألقي في النار عريانا ، وقيل : لأنه أول من لبس السراويل[2] .

قال المناوي :

أول من يكسى يوم القيامة من الخلائق على اختلاف أنواعها وطبقاتها ، وتباين أممها ولغاتها ، بعد ما يحشر الناس كلهم عراة أو الغالب ، أو بعد خروجهم من قبورهم بثيابهم التي ماتوا فيها ، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر ، فيحشرون عراة ، ثم يكون أول من يكسى من ثياب الجنة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه جرّد في ذات الله حين ألقي في النار ، ولأنه لم يكن أخوف لله منه فتعجّل كسوته؛ إيناسًا لَهُ ليطمئن قلبه ، أو لأنه أول من استنّ السراويل؛ مبالغة في الستر وحفظًا لفرجه ، فلما اتخذ هذا النوع الذي هو أستر للعورة من جميع الملابس جوزي بأنه أول مَنْ يكسى ، ثم يكسى المصطفى ﷺ حلة أعظم من كسوة إبراهيم عليه السلام ؛ لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة .

وجزاء إبراهيم عليه السلام من جنس عمله .

قال علي – رضي الله عنه – : أول مَنْ يكسى إبراهيم قبطيتين ، ثم

---

(١) صحيح : رواه البزار وابن عساكر عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٥٨١ و السلسلة الصحيحة رقم ١١٢٩ .

(٢) فتح الباري (٦ / ٤٤٩) .

يكسى النبي ﷺ [حلة] حبرة وهو عن يمين العرش[1] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ [الصافات : ٨٤].

سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير .. صورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة والإخلاص .. فقال الله تعالى : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم** ﴾ [الصافات : ٧٨] سلام على إبراهيم من ربه .. سلام يسجل في كتابه الباقي .. ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

يقول الله تعالى عن خليله : ﴿ **وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ [الصافات : ٩٩] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ **ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٢] .

[إنها الهجرة .. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية ، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته .. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه ، وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ، ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء ، طارحا وراءه كل شيء ، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومِنْ أواصر شتّى إلى آصرة واحدة ، لا يزحمها في النفس شيء - إنه التعبير عن التجرد

---

(١) صحيح الإسناد موقوف على علي : أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في الأسماء وأخرجه أحمد ، والذهبي في العلو وصححه ، وصححه الألباني في مختصر العلو ص ١٢٥ ، وهناك حديثان مرفوعان يشهدان للحديث الموقوف ، ويدلان على أنه في حكم المرفوع والله أعلم . وقال الألباني أيضًا : وله عند الحاكم شاهد آخر عن عبد الله بن سلام وصححه .

والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى .. وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها][١] .

[لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطنًا وأهلًا وقومًا ، فعوّضه الله الأرض المباركة وطنًا خيرًا من وطنه ، وعوّضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب **أهلًا** خيرًا من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قومًا خيرًا من قومه ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم .

لقد ابتلاه بالضَّراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل][٢] .

لما آيس من أصله ، آنسه الله بما أكرمه من نسله .

وانظر يا أخي ، كيف كان جزاء الخليل عليه الصلاة والسلام ، من جنس عمله ، لمّا هان عليه ولده وذَبْح ولده ، وهو الشيخ الكبير الطاعن في السن ، وعزم على ذلك واستعد ، وقال لابنه : ﴿ **إني أرى في المنام أني أذبحك ...** ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فلما وفّى لله وفّى الله له وقال الله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ [الصافات : ١٠٧] كما قرت عينك بنا سنقر عينك بولدك جزاءً وفاقًا .

من اختار الله على من سواه اختاره الله على من سواه ، تتعلق شعبة من قلب إبراهيم بحب ابنه البكر ، والله غيور أراد أن يطرد المزاحم من قلب خليله ، فلما تحقق المقصود ، وهمّ بالذبح عوضه الله بذبح عظيم .

هان عليه ولده[٣] في الله فقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب**

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٩٤) .

(٢) الظلال (٤ / ٢٣٨٨) .

(٣) الذبيح هو : إسماعيل عليه السلام .

كُلًّا هدينا ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحٰق يعقوب** ﴾ [هود : ٧١] .

قال ابن كثير :

بشروه مع وجوده[1] بنبوته وبأن له نسلًا وعقبًا ، ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد ؛ لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب – لضعفه – وقعت البشارة به وبولده ، باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، تقر بهم عينه كما قال : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكُلًّا جعلنا نبيًّا** ﴾ [مريم : ٤٩] وقال هاهنا : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلًّا هدينا** ﴾[2] [الأنعام : ٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ [الطور : ٤] .

قال ابن كثير :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء ، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع لي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » . يعني يتعبدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم . كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . ولهذا وجد إبراهيم الخليل – عليه السلام – مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضيّة ، والجزاء من جنس العمل ، وهو

---

(١) الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٩٠ – ٢٩١) . .

بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة ، والله أعلم[١] .

○ إسماعيل عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢].

يتلقى إسماعيل عليه السلام الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضًا كذلك ، وفي يقين !!. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده ، بل لا يفقده أدبه ومودته ، لبَّى بغير لجلجة وبغير تمحل وارتياب.... نبل طاعة وعظمة تسليم ... الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية . لا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ، لا تستبقي لنفسها في نفسها شيئًا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه ، إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

لم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه ، وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

لما جاء إسماعيل بأعز شيء تلبية لأمر الله فناب ذبح عن ذبح ، يفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت يفديها بذبح عظيم، يليق بعظمة إسماعيل ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٤) .

○ يوسف عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن كثير :

ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] اهـ[١] .

قال الطبري :

هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه ؛ فأحسن في الدنيا عمله وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه ؛ بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف .

قال قتادة : عملوا خيرًا فجوزوا خيرًا .

وقال ابن زيد : حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسنا إليهم ، أدخلناهم الجنة .

قال ابن المنكدر : هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة .

وقال محمد بن الحنفية ، هي مسجلة للبر والفاجر[٢] .

قال الزمخشري :

مسجلة للبرّ والفاجر ؛ أي مرسلة يعني أن كل من أحسن أحسن إليه ، وكل من أساء أسيء إليه . اهـ[٣] .

وقال الألوسي :

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٠) .

(٢) تفسير الطبري (١١ / ٨٩) .

(٣) الكشاف (٤ / ٥٤) .

ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب[1] .

قال القرطبي :

قال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد[2] .

قال تعالى : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغَلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنَّا لنراها في ضلال مبين** ﴾ [يوسف : ٣٠] .

إن من يهتك الستر الذي بينه وبين الله يهتك الله الستر الذي بينه وبين الناس . قد بلغت السرية كالها عند إغلاق الأبواب ، والتي كانت سبعة أبواب ، حيث الإرادة أن يتم المنكر معها وحدها ، لكنَّ إرادة الله شاءت أن يطلع على ذلك الشهود وزوجها ونساء المدينة بصورة علنية وعامَّة .

وقال تعالى : ﴿ **قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ [يوسف : ٣٢ -٣٤] .

ويقول الله تعالى : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ [يوسف : ٣٥] .

يقول ابن كثير :

ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات على صدقه في عفته ونزاهته . فكأنهم - والله

---

(١) روح المعاني (١٢٠/٢٨) . (٢) تفسير القرطبي (٦٣٥٣/١٠) .

أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لمّا طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبيّن براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ [يوسف : ٥٠] .

قد وردت السنة بمدح يوسف عليه السلام على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعلوّ قدره وصبره .

ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ **رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ : « عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه ، والله يغفر له ، حيث أرسل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت لصبره وكرمه ، والله يغفر له ، أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل »[1] .

صَبَر يوسف ، والمرأة التي اتهمته بالمراودة هي التي تعلن أمام الجميع : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ [يوسف : ٥١] شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه ، لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، كذلك تبينت له كرامته ، وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك ، وأي ملك ؟

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٧٩ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١١٤١ .

ملك مصر . ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلمًا ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله ، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ، كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام يوسف عليه السلام وحبه ، فقال : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ [يوسف : ٥٤] .

فيا ليت رجالًا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ، وهم أبرياء مطلقو السراح - فيضعون النِّير في أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتون على حظوة الأتباع لا مكان الأصفياء ، فياليت رجالًا من هؤلاء يقرءون القرآن ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء تُدِرُّ من الربح - حتى المادي - أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء .

وفي الصحيح في مسند أحمد عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم »[1] .

قال المناوي :

وأي كريم أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوة ، وحسن الصورة ، وعلم الرؤيا ، ورئاسة الدنيا ، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ؟؟.

قال الشاعر :

إن السريّ إذا سرى فبنفسه وابن السريّ إذا سرى أسراهما[2]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] .

قال ابن جرير :

يتخذ منها منزلًا حيث يشاء ، بعد الضيق والحبس والإسار[3] .

وقال ابن كثير :

---

(١) رواه البخاري من حديث عمر .

(٢) فيض القدير للمناوي (٥ / ٦٤) .

(٣) تفسير الطبري (١٦ / ١٥١) .

وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ؛ فلهذا يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولّاه ملك مصر الرَّيَّان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق : ولّاه فيما ذكروا عمل إطفير عما كان عليه ، فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الرَّيَّان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير : راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال : أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين ؟ . قال : فيزعمون أنها قالت : يأيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترى ، حسناء ، جميلة ، ناعمة ، في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك ، على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف . وولد لأفرائيم نون والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق ، حين مرّ يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته ، والملوك عبيدًا بمعصيته[١] .

قال سيد قطب :

على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد ، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود ...

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢١) .

البشرى في الآخرة جزاءً وفاقًا على الإيمان والصبر والإحسان .[١] .

يقول ابن القيم :

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن جِنسه ، لما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء اهـ[٢].

عفّ يوسف عن شهوة فمكنه الله منها ، ترك شهوة واحدة فنال شهوات الأرض بأسرها .

إن الذي يستلفت النظر كثرة تكرار صفة الإحسان ، فكان محسنا مع ربه وأيضًا مع الناس - وهما متلازمان - فقد سمى الله قصته ﴿ **أحسن القصص** ﴾ [يوسف : ٣] أي من أحسنه ، ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [يوسف : ٢٢] ووصفه السجناء بذلك ﴿ **نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٣٦] وبه مكنه الله تعالى في الأرض ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] وقال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٧٨] وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ **قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٩٠] ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿ **وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن القيم :

﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] وإنما اختص أهل

---

(١) الظلال (٤ / ٢٠١٤) .

(٢) روضة المحبين لابن القيم ص٤٤٣ .

الإحسان بقرب الرحمة منهم ؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته . وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب ، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومَنْ تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته(١).

فائدة :

قال تعالى : ﴿ **ولقد هَمّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ...** ﴾ الآية.ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه ؛ ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي ، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم يوسف ، والمرأة ، وزوجها والنسوة والشهود .

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية ، فذكره تعالى في قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ [يوسف : ٢٦] وقوله : ﴿ **قال رب السجن أحبّ إلي مما يدعونني إليه** ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ [يوسف : ٣٢] .

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ [يوسف : ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين**﴾ إلى قوله: ﴿**قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ [يوسف : ٢٦-٢٨] .

---

(١) التفسير القيم ص ٢٥٨ .

وأما شهادة الله عز وجل ببراءته ففي قوله : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقد شهد الله على طهارته أربع مرات :

أولها : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال له في صفة عباد الرحمن : ﴿ **ولا يزنون** ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

والرابع : قوله : ﴿ **المخلصين** ﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل . وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته . وعلى كِلَا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ من تفسير الرازي .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ، ففي قوله تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] . فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من سادات المخلصين بنص القرآن الكريم .

أما شهادة النسوة، فقد قال الله تعالى : ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ [يوسف : ٥١] .

قال الفخر الرازي[1] :

هؤلاء الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ؛ ولَعَلّ منهم من يقول : كنا في أول الأمر تلامذة إبليس ، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه ، كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

(١) كلامه بتصرف من تفسيره مفاتيح الغيب .

فلوْ مات قبلي كنتُ أحسن بعده طرائقَ فسقٍ ليس يحسنها بعدي

ولكن ماذا نقول في قوله تعالى : ﴿ **وَهَمَّ بها** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

الجواب من وجهين :

الأول : أن المراد بهمِّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوى .

وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي ، والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى ، وهذا لا معصية فيه ؛ لأنه أمر جِبِلِّي لا يتعلق به التكليف ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » . يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد ، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم . وقد قال ﷺ : « مَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة » ؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله وامتثالًا لأمره ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وهَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهمِّ يوسف هذا ، بدليل قوله : ﴿ **إذْ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ [آل عمران : ١٢٢] لأن قوله : ﴿ **والله وليهما** ﴾ يدل على أن ذلك الهمّ ليس بمعصية ؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله للعاصي – لو كان هذا الهم معصية – إغراء على المعصية .

بخلاف همّ امرأة العزيز ، فإنه همّ عزم وتصميم ، بدليل أنها شقت قميصه من دبر . ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها ، بدليل الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » . قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟. قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » . فصرح ﷺ بأن تصميمه وعزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار .

وأما تأويلهم همّ يوسفَ بأنه قارب الهم ولم يهمّ بالفعل ، وتأويل الهم بأنه همَّ بضربها ، أو همّ بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد عن الظاهر ، ولا دليل عليه .

الثاني : وهو اختيار الشيخ أبي حيان : أن يوسف لم يقع منه همّ أصلًا .

قال الشنقيطي :

هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله : ﴿ **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : ٨٤] أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه .

فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ؛ لأن جواب الشروط وجواب لولا لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلًا عليه ، كالآية المذكورة ، وكقوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة : ١١١] أي إنْ كنتم صادقين فهاتوا برهانكم . وعلى هذا القول : فمعنى الآية : وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه . أي لولا أن رآه همَّ بها ، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف ، كما هو الغالب في القرآن واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ [القصص : ١٠] أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا في قوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ **وهمّ بها** ﴾ وإلى جواز لتقديم المذكور ذهب الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : المبرد ، وأبي زيد الأنصاري .

قال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه : والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله .

يقول الشيخ الشنقيطي :

وأما أقوال السلف : فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ؛ لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقض بعضها بعضًا ، مع كونها قادحة في بعض فسّاق المسلمين فضلًا عن المقطوع لهم بالعصمة .

ويقول مرة أخرى - يرحمه الله -:

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين :

قسم: لم يثبت نقله عمّن نقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال في سقوطه.

وقسم : ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك ، فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين : أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ(١) .

يا لمكانة نبي الله يوسف حين يقول في حقه : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] . كاد له إخوته فعوقبوا بكيد .. كادوا فكِيد لهم .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن كثير :

وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] .

إن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام ، بأن جمع بينه وبين أخيه ، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم ، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره .

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي ، فقالوا : ﴿ **يأيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين** ﴾ [يوسف : ٨٨] ، فهذا الذُّلّ والخضوع في مقابلة ذلّه وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد .

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي من أجلها سجدوا له ، هم وأبوه وخالته ، في مقابلة كيدهم له ، حذرًا من وقوع ذلك ، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم ، فكادوه خشية

(١) أضواء البيان (٣ / ٤٩-٦٠) .

ذلك ، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك ، كما رآه في منامه .

وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ [القصص : ٤] خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه ، فكاده الله سبحانه ، بأن أخرج له هذا المولود ، ورباه في بيته ، وفي حجره ، حتى وقع به ما كان يحذره ، كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مقدّرا   وفررت منه فنحوه تتوجّـهُ[(١)]

لقد حسّن الله خُلُق يوسف عليه السلام وخَلْقَه .

قال رسول الله ﷺ : « أعطي يوسف شطر الحسن »[(٢)] .

وقال ﷺ : « أعطي يوسف وأمه شطر الحسن »[(٣)] .

ففي موقفه مع امرأة العزيز كان مثالًا للعفة ؛ فكل الظروف من حوله كانت تدفعه دفعاً إلى الفاحشة ، ولكنه يوسف المحسن المخلص عليه السلام .

فقد كان شابًّا عزبًا ، وقد كان غريبا والغريب لا يستحي من الناس ؛ لأنهم لا يعرفونه .

وأنه كان عبدًا لها ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر .

وهي سيدته ، وهي الآمرة ، فدافع الشهوة أكبر حين تكون المرأة طالبة .

وهي حسناء جميلة ، وقد غاب الرقيب ، وغلّقت الأبواب .

وهي تهدّده بالسجن إن لم يفعل .

وتكرّر الطلب منها أكثر من مرة .

---

(١) إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان (٢ / ١١٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، عن أنس ، وكذا رواه ابن عدي في الكامل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٧٣ ، والصحيحة رقم ١٤٨١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، ورواه ابن عدي في الكامل وابن عساكر ، وزادا : يعني سارة .

فياليت أناسًا ينزجرون ويكفون ، يقول الواحد منهم :

لو خلوت بالحور العين لعففت ، وهو لو خلا بجارية سوداء لفعل وفعل ، وكأنه قد أشهد على صداقها أبا هريرة .

○ نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ○

قد لاقى نبي الله موسى في سبيل الدعوة إلى الله ما لاقى .

وبعد قتله القبطي خرج من مصر خائفًا يترقب ، وحيدًا فريدًا مطاردًا ، في قلب المخافة بعد فترة من الأمن ، وحيدًا مجردًا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يبحثون عنه في كل مكان ؛ لينالوا منه اليوم مالم ينالوه منه طفلًا ، ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ألم يقل له ربه : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قال تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من النَّاس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولّى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلّي من خير فقير** ﴾ [القصص : ٢٣ - ٢٤] .. حتى نهاية القصة .

لم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح في وقت القيظ والحر .عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن موسى - عليه السلام - لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم[١] .

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا ، فما وصل مَدْيَن حتى سقطت نعل قدمه . وجلس

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ، وقال ابن كثير في التفسير (٦ / ٢٣٧) ، إسناده صحيح .

في الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لَتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : حثثت على جمل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملي - وكان جائعا - فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت[1] .

﴿ **فسقى لهما** ﴾ يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله .

﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ . مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحرّ ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر .

﴿ **فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العظيم ظل الله الكريم المنّان بروحه وقلبه ﴿ **رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ رب إني في الهاجرة ، رب إني فقير ، رب إني وحيد ، رب إني ضعيف ، رب إني إلى فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج .

رفرفة ومناجاة قريبة ، وهمس موحي ، وانعطاف رفيق ، واتصال عميق ، ويسارع مولاه بالاستجابة لقلبه الضارع ، دعوة من الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير ، دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان ﴿ **إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ...** ﴾ الآية [القصص : ٢٥] .

﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢٥] . فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد ، ومن ثم كان أول لفظ للشيخ الوقور : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . فلا سلطان لهم على مدين .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٧) .

خرج خائفًا فأمّنه الله ، وكان جائعًا فرزقه الله ، وكان وحيدًا فريدًا فآواه الله إلى ابنة الرجل الصالح .

ويا لله .. هذه الغنم التي شربت بسقي موسى ، وهو لا يبتغي على ذلك أجرا يكن له منها النصيب الوافر بعد أن قضى الثماني حجج في خدمة الشيخ .. يالكرم الله وفرجه ونداه .

إشكال :

إن موسى سقى أغنامهما تقربًا إلى الله تعالى ، فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه ، فإن ذلك غير جائز في المروءة ولا في الشريعة ؟

والجواب : أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلبًا للأجرة ، بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ ، وروي أنها لما قالت : ليجزيك كره ذلك ، ولمّا قدِّم إليه الطعام امتنع ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا ، حتى قال شعيب(1) عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

وأيضًا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله ، فقبل ذلك على سبيل الاضطرار .

وقال الرازي أيضًا :

إنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ، ولم يكره ذلك

---

(1) قد اختلف المفسرون في هذا الرجل والد الفتاتين من هو ؟ على أقوال :

أحدها : أنه شعيب النبي – عليه السلام – وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد .

وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد ، ثم من المُقَوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من ذكر اسمه فلا يصح إسناده . اهـ .

مع الخضر حين قال تعالى : ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرًا** ﴾ [الكهف : ٧٧] والفرق أن أخذ الأجرة على الصدقة لا يجوز ، وأما الاستئجار ابتداءً فغير مكروه[١] .

كما لاق الكريم الذي صُنع على عين الله من اللئيم الذي استخفه الشيطان وأغواه .

يقول تعالى عن سخرية فرعون من موسى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] .

﴿ **مهين** ﴾ أي حقير ، ﴿ **ولا يكاد يبين** ﴾ لا يكاد يفصح عن كلامه ، فهو عيي حصر .

قال ابن كثير :

وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : مهين : كذب ، بل هو المهين الحقير خلقة وخُلُقًا ودينًا ، موسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد .

وقوله : ولا يكاد يبين افتراء أيضًا ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله أن يحل عقدة لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله له في قوله : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[٢] [طه : ٣٦] .

بل لم يسلم موسى - عليه السلام - من أذى بني إسرائيل ، وهو الذي

---

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢١٨ - ٢١٩) .

أخرجهم الله على يديه من ظلمات الكفر والحبس والذبح .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى عليه السلام كان رجلا حييًا سِتّيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص ، وأما أدرة[١] ، وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أنْ يُبرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلى يومًا وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حَجَر ثوبي حجر[٢] .. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانًا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون، وقام[٣] الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ .

والنبي ﷺ لما قسم ذات يوم قسمًا ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... فقال ﷺ : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »[٤] .

وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته . كان ألين لنا منك وأشد حياءً ،

---

(١) الأدرة : نفخة في الخصية ، ويقال للرجل : آدر .

(٢) معناها : أي ثوبي يا حجر .

(٣) أي وقف وثبت .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم[1] .

بل نسبوا إلى موسى عليه السلام أشد من ذلك ، فقد روى ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حُوّلت من موسى إلى يوشع بن نون في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله : ما أحدث الله من الأوامر والنواهي . حتى قال له : يا كليم الله ، إني كنت لا أسألك عمّا يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك . فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت ... وفي هذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه في جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززًا مكرمًا مدلّلا وجيهًا عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثوره ، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ . قال : الموت . قال : فالآن يا رب.. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك - صلوات الله وسلامه عليه - فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق : إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان[2] .

صبر موسى على « لن » :

قال له الله تعالى : ﴿ **لن تراني** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] عند سؤاله الرؤية في الطور .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٧٥) نقلًا عن تفسير ابن أبي حاتم ، والطبري .

(٢) البداية والنهاية (١ / ٢٩٨) .

وقال له الخضر عليه السلام : ﴿ **لن تستطيع معي صبرًا** ﴾ [الكهف : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥] .

وقال له قومه : ﴿ **لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ..** ﴾ الآية [المائدة : ٢٤] .

وقال له قومه : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ [البقرة : ٥٥] .

جزاء موسى على صبره :

قال الله تعالى : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ [طه : ٣٩] وأي شرف فوق هذا ؟.

وقال الله تعالى : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قالوا عنه : إنه مهين فأخبر الله تعالى بوجاهته : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عيّروه بالعي في لسانه ، فاختاره الله كليمًا له ، وأي شرف فوق هذا ؟.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

قال ابن كثير :

« لا أدري أصعق فأفاق قبلي » أي كانت صعقته خفيفة ؛ لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، أو جوزي بصعقة الطور ، يعني فلم يصعق بالكلية ، وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيًّا** ﴾ [مريم : ٥٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢٦٦) .

قال ابن كثير :

أي وأَجَبْنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيًّا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **وأخي هٰرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءًا يصدقني إني إخاف أن يكذبون** ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ [طه : ٣٦] ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا[١] .

وقال أيضًا :

ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم مِنّة على أخيه من موسى على هارون – عليهما السلام – فإنه قد شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال في حق موسى : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾[٢] [الأحزاب : ٢٦٩] .

قال الهروي في كلامه على منزلة المُراد :

الدرجة الثانية : أن يضع عن العبد عوارض النقص ، ويعافيه من سمة اللائمة ، ويملكه عواقب الهفوات ، كما فعل بسليمان – عليه السلام – حين قتل الخيل ، فحمله على الريح الرخاء ، فأغناه عن الخيل ، وفعل بموسى – عليه السلام – حين ألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه ، ولم يعتب عليه كما عتب على آدم – عليه السلام – ونوح ، وداود ، ويونس – عليهم السلام – .

يقول ابن القيم :

إذا عرضت له أسباب النقيصة ، التي يستحق عليها اللائمة ، لم يعتبه عليها ولم يلمه ، وهذا نوع من الدلال ، وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه فإن الحبيب يُسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه . وإذا هفا هفوة ملكه

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٣٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٤٦) .

عاقبتها ، بأن جعلها سببًا لرفعته ، وعلوّ درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح ، وذلٍّ خاصٍّ ، وانكسارٍ بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسناتٍ كثيرة ، وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه .

قال ابن القيم :

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، ولم يعتب عليه ربه ، وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي - ﷺ - إذ رفعه فوقه ، ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال : لأن موسى - عليه السلام - قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال ، فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى ، وتصدى له ولقومه ، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه ، فاحتمل له ما لم يحتمل لغيره .

وذو النون لما لم يكن في هذا المقام : سجنه في بطن الحوت من غضبة ، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا[1] .

والجزاء من جنس العمل .

○ داود عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ [ص : ١٧-٢٠] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٥٥ - ٤٥٦) .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلًا يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير** ﴾ [سبأ : ١٠ - ١١] .

وقال تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ [الأنبياء : ٧٩ - ٨٠] .

﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الأيد : القوة في الطاعة ، يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . وقال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام .

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كان داود أعبد البشر »[١] .

وقال ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا[٢] ... ولا يفر إذا لاقى »[٣] .

كان الله تعالى قد وهب داود - عليه الصلاة والسلام - من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويردد ، ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه ، كلما سبح

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في تاريخه ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٢٩) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمرو .

(٣) ثابتة في الصحيحين .

بكرة وعشيا .

وقال عبد الله بن عامر : أعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحد قط ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجّل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا[١] .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ على داود القراءة فكان يأمر بدوابه فتُسرج ؛ فيقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده »[٢] .

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذي أنزل عليه وأوحي إليه .

داود البكاء الأواب ، الذي ما أكل طعامًا إلا بلَّله بدموعه ، وما شرب قدحًا إلا مزجه بدموعه ، داود – عليه الصلاة والسلام – الذي كان يقول : أوه من عذاب الله ، أوه قبل ألّا تنفع أوه ، يارب إني لا أستطيع حر شمسك فكيف أستطيع حر نارك ؟ يارب إني لا أستطيع سماع صوت رحمتك وهو الرعد فكيف أستطيع سماع صوت غضبك؟.

عن ابن شهاب قال : قال داود : الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود .

يقول الله تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب**

---

(١) البداية والنهاية (٢ / ١٠ – ١١) .

(٢) رواه البخاري وأحمد في مسنده .

فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [ص : ٢٤ -٢٥] .

قال تعالى : ﴿ **يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ [ص : ٢٦] .

قوله تعالى : ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ [ص : ٢٥] .

أي إنَّ له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ، ويُدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يُقْسِطُون في أهليهم وحكمهم وما ولوا » .

قال مالك بن دينار : ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود ، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

كما كان أعبد الناس في الدنيا ، وكما كان يمجده في الدنيا ، فكذا اليوم يمجده على منبر من نور مع نعيم القرب والزلفى .

والجزاء من جنس العمل .

صوت الأوّاب مزامير فلتصغ جبال البلدان
والطير بأجمعه سبح ويرجع ذكر الرحمن

○ سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب إذ عرض عليه**

بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحًا بالسوق والأعناق ﴾ [ص : ٣٠-٣٣] .

عرض على سليمان – عليه السلام – في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات .

قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع .

وروى ابن جرير عن إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرسًا ذات أجنحة .

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي : كانت الخيل التي شغلت سليمان – عليه الصلاة والسلام – عشرين ألف فرس فعقرها .

قال ابن كثير : وهذا أشبه ، والله أعلم .

قال ابن كثير :

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا ، كما شُغِل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه .

ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة – رضي الله عنهم – في فتح تُستَر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما . والأول أقرب ؛ لأنه قال بعدها : **﴿ ردوها عليّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾** .

قال الحسن البصري : قال : لا ، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر

ما عليك . ثم أمر بها فعقرت . وكذا قال قتادة .

وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبًّا لها .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة ، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر لها ، ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضبًا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة(١) .

وقال ابن كثير :

قد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقووا بها، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة(٢) .

قال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ...**﴾ [الأنبياء : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ...** ﴾ الآية [سبأ : ١٢] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر ، فيتغدى بها ، ويذهب رائحا منها ، فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ - ٥٧) .

(٢) البداية والنهاية (٢ / ٢٣) .

وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

وقال تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ [ص : ٣٦] حيث أراد ؛ قاله مجاهد .

وهذه الريح عاصفة في بعض الأوقات ، ولينة رخاء في بعضها ، بحسب الحاجة ؛ كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده ، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب .

ما ذكره الزمخشري قال :

فإن قلتَ : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟

قلتُ : كانت في نفسها رخيّة طيبة كالنسيم ، فإذا مرّت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر ..** ﴾ [سبأ : ١٢] . فكان جمعها بين الأمرين : أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم اهـ .

وقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض .

وقوله : ﴿ **تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ...** ﴾ لأن مسكنه فيها ، وهي الشام ، فترده إلى الشام . وعليه فقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ في حالة الذهاب . وقوله : ﴿ **إلى الأرض التي باركنا فيها ...** ﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ - ٥٧) .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٤ / ٦٧٦ - ٦٧٧) .

وفي مسند أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علّمه الله عز وجلّ وقال : « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرًا منه »[١] .

فكيف كان جزاء سليمان – عليه السلام – من جنس عمله ؟

قال الحسن البصري – رحمه الله – : لمّا عقر سليمان الخيل غضبًا لله عز وجلّ ، عوّضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر[٢] .

وقال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرًا منه .

لما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح ؛ يسير على متنها حيث أراد[٣] .

قال البقاعي : ذلّلنا بمالنا من العظمة له الريح ؛ لإرهاب العدو وبلوغ المقاصد ، عوضًا عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا ، تجري رخاء لينة غاية اللين منقادة ، يدرك بها ما لا يدرك بالخيل : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ وكل من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه[٤] .

○ نبي الله أيوب عليه السلام ○

الصالح الصابر الأوّاب .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٦٤) .

(٣) روضة المحبين ص ٤٤٣ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١٦ / ٣٨٤) .

كان من ذرية إبراهيم عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون** ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

والمشهور أن زوجه بنت منشا بن يوسف بن يعقوب عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسّني الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب - عليه السلام - وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليمًا سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسُلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته - رضي الله عنها - فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريبا . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، قال : رب ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، قيل : بنصب في بدني ، وعذاب في مالي وولدي ، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل فأنبع الله عينًا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت

جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر ، فأنبع له عينًا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا .

فماذا كان جزاء صبره ؟

قال ابن عباس : رد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم .

وقال الحسن وقتادة : أحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقيل : آجره فيمن سلف ، وعوّضهم عنهم في الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة[1] .

صحة ظاهرة وباطنه وجمال تام والله ، ما مُدّ سجاف ﴿ **نعم العبد** ﴾ على قبة ﴿ **ووهبنا له** ﴾ حتى جرب في أمانة ﴿ **إنّا وجدناه صابرًا** ﴾ .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا ، خرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك »[2] .

انظر إلى أدب أيوب - عليه الصلاة والسلام - ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ولم يقل : فعافني واشفني[3] .

يقول ابن القيم :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ جمع في هذا الدعاء بين : حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة

---

(١) البداية والنهاية (١ /) ، وتفسير ابن كثير (٧ / ٦٦) .

(٢) رواه البخاري وأحمد .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٨٠) .

إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين .

والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه .

يقول الشيخ سيد قطب :

قصة ابتلاء أيوبْ من أروع قصص الابتلاء .. وأيوب هنا في دعائه لا يزيد وصف حاله : ﴿ **أني مسني الضر** ﴾ ووصف ربه بصفته : ﴿ **وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبرًا على بلائه ، ولا يقترح شيئًا على ربه ، تأدبا معه وتوقيرا ، فهو نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضرّ الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ؛ اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه بالسؤال ، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء .

إن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها ، وإن في صبر أيوب لعبرةً للبشرية كلها ، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

العابدون معرضون للابتلاء والبلاء ، وتلك تكاليف العبادة والعقيدة وتكاليف الإيمان[١] .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن ، فلم يشكني إلى عُوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »[٢] .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٩٢) .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٧٧ ، والصحيحة رقم (٢٧٢) .

والجزاء من جنس العمل - نعم العبد إنه أواب .

○ ذو الكِفْل عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين** ﴾ [الأنبياء : ٨٥ - ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر إسمٰعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ [ص : ٤٨] .

الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه ، مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيّ - عليه من ربه الصلاة والسلام - وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا ، وإنما كان رجلًا صالحًا وحكمًا مُقْسِطًا عادلًا ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلًا على الناس ، يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس فقال : من يتقبل لي بثلاثٍ أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجلٌ تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟! قال : نعم . قال : فردّهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل ، فقال : أنا . فاستخلفه ... فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفّل بأمر فوفّى به[1] .

من وفى لله وفى الله له ، وألبسه رداء عمله ، والجزاء من جنس العمل .

غلب عليه ما وفى به ، وسماه الله به ، وجعله قرآنًا يُتلى ، فأي شرفٍ وجزاء فوق هذا ؟ فكيف بجزاء المتهجدين الصائمين المقسطين في حكمهم ؟ .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢١٠ - ٢١١) .

○ يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠] .

وقصة ذي النون يونس بن متى عليه السلام رواها جمع من علماء التفسير .

قال ابن كثير :

إن يونس بن متّى - عليه السلام - بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث . فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصْلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحُمْلانها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا**

ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : ٩٨] .

وأما يونس - عليه السلام - فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فَلَجَّجَت[١] بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضا ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا ، قال الله تعالى : ﴿ **فساهم فكان من المدحضين** ﴾ ، أي وقعت عليه القرعة ، فقام يونس - عليه السلام - وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى بنفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتًا يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحما ، ولا تهشم له عظما ؛ فإن يونس ليس لك رزقًا وإنما بطنك له يكون سجنًا .

﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، يروى نحو هذا عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روي عن ابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها ، حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك** ﴾ .

وقال عوف : لما صار يونس في بطن الحوت ، ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجليه ، فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى : يارب ، اتخذت لك مسجدًا في موضع ما اتخذه أحد[٢] .

---

(١) خاضت اللُّجَّة ، ولجة البحر : حيث لا يدرك قعره .

(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٦٠ - ٣٦١) .

واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام ، قاله قتادة . وقيل : جمعة ، قاله جعفر الصادق . وقيل : أربعين يوما ، قاله أبو مالك . وعن الشعبي : التقمه ضحىً ، وقذفه عشية . والله أعلم بمقدار ذلك .

وفي شعر أمية بن أبي طالب :

وأنت بفضل منك نجيّتَ يونسا وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليًا

وقوله : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء . قاله الضحاك بن قيس ، وأبو العالية ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، وغير واحد . واختاره ابن جرير .

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحّاك ، وعطاء بن السائب ، والسدي ، والحسن ، وقتادة : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ يعني المصلين .

وقيل المراد : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ هو قوله : ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره .

وصرّح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك[1] .

سمع تسبيح دواب البحر ، فصلى وسبح وهو في بطن الحوت ، فسمع الملائكة تسبيحه ، فقالوا : يا ربنا ، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟ . قال : نعم . قال : فشفعوا فيه عن ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **وهو سقيم** ﴾ .

قال أبو هريرة : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ - ٣٤) .

يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ؟ . قال : شجرة الدّباء . قال أبو هريرة : وهيّأ الله له أُرْوِيَّة[١] وحشية تأكل من خشاش الأرض – أو هشاش الأرض – قال : فتتفشح[٢] عليه ، فترويه من لبنها كل عشية وبُكرة حتى نبت .

قال تعالى : ﴿ **فنبذناه** ﴾ أي ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ قال ابن عباس : وهي الأرض التي ليست بها نبت ولا بناء .

و ﴿ **سقيم** ﴾ أيْ ضعيف البدن . قال ابن مسعود – رضي الله عنه – كهيئة الفرخ ليس عليه ريش . وقال السدي : كهيئة الصبي حين يولد ، وهو المنفوس . وقاله ابن عباس ، وابن زيد أيضًا .

﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وسعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وهلال بن يَسَاف ، وعبد الله بن طاووس ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع .

﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت .

قال ابن كثير :

ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولًا ، أُمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ **أو يزيدون** ﴾ : بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا .

---

(١) الأروية : بضم فسكون ، فواو مكسورة ، فياء مشددة : الشاة الجبلية ، وخشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

(٢) أي تفرج ما بين رجليها ، ويقال بالجيم والحاء المهملة .

وقال ابن جبير : يزيدون سبعين ألفا .

وقال مكحول : كانوا مائة وعشرة آلاف .

فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس جميعهم ، فمتعناهم إلى وقت آجالهم(١) اهـ .

فكيف كان جزاء يونس من جنس عمله ؟ .

إن يونس - عليه السلام - لم يصبر بدايةً على تكاليف الرسالة ، فضاق صدره بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضبًا ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ أي مستحق للوم .

والجزاء من جنس العمل .

عن ابن مسعود بإسناد صحيح : فانطلق مغاضبا حتى ركب سفينة ، فقال لهم يونس إن معهم عبدًا آبقًا من ربه ، وأنها لا تسير حتى تلقوه ، فقالوا : لا نلقيك يا نبي الله أبدًا ، قال : فاقترعوا ، فخرج عليه ثلاث مرات ، فألقوه ، فالتقمه الحوت ، فبلغ به قرار الأرض .

أصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذء من أجلها .

وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ويعيدوا .

إن طريق الدعوات ليس هينًا لينًا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل و الضلال والتقاليد والعادات ، يجثم على القلوب ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ - ٣٦) .

ولا بد من إزالة هذا الركام .

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدئ الأعصاب .. ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟.

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ، فليكظم ويمضي ، والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الهدى ، والهدى هدى الله[1] .

تَعَرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ .

احفظ الله يحفظك .

فيونس صاحب الصلاة والتسبيح قبل التقام الحوت له .. ويونس المسبح المصلي في الظلمات في مسجد – بطن الحوت – ما اتخذه أحد قبله .. فنجّاه الله من شدته .

والجزاء من جنس العمل .

○ يحيى بن زكريا الشهيد ابن الشهيد عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : **﴿ وزكريا إذْ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون**

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٣٩٣ – ٢٣٩٤) .

في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : ٨٩- ٩٠].

وقال تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين** ﴾ [آل عمران : ٣٨- ٣٩] .

قال تعالى : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداءً خفيًّا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًّا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا** ﴾ [مريم : ٢ - ٧] .

وقال تعالى : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا . وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيًّا . وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا** ﴾ [مريم : ١٢ - ١٥] .

في شرف مناجاة ولذاذة انفراد بالخلوة يقوم زكريا عليه السلام ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب . فقال الله : لبيك ، لبيك ، لبيك[1] .

لأنهم ﴿ **كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ فسارع الله في استجابة الدعاء . مسارعة بمسارعة والجزاء من جنس العمل :

يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء » . فماذا يطلب زكريا وهو الشيخ الكبير ، وقد وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيبًا ، وكانت امرأته عاقرًا ، لا تلد وهي في شبابها ، عقيمًا وهي في شبابها ، ولكن

---

(١) انظر ابن كثير (٣ / ٢٠٦) .

زكريا لم يكن بدعاء ربه شقيًا ، قد عوّده الله أن يستجيب إليه إذا دعاه فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته ، وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يتم الله عليه نعمته .

إن زكريا سأل الولد ، وهو مطلب عجيب غريب ، يسأله وقد بلغ من الكبر ما بلغ ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه ، فكيف الآن ؟ سأل الولد ليكون عونًا له على الطاعة ووارثًا من نسله في النبوة ؛ ليكون قائمًا بحق الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ لأن السؤال إذا كان لحق الحق لا لحظ النفس لا يكون له الرد .

يقول الشنقيطي :

خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي أن يضيعوا الدين بعدي ، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام ، فارزقني ولدًا يقوم بعدي بالدين حق القيام ، فهو إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله والقيام بدينه[1] .

إن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكتنزوا لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم من الزهاد لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها ، والله إن النبي أعظم منزلة وأجلّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، أن يأنف من وراثة عصباته له ، وإنما يريد ولدًا يكون نبيًا من بعده ، نيسوسهم بنبوته وما يُوحى إليه .

لما سأل زكريا عليه السلام السؤال الفذ ، ولازم الباب أتته الإجابة ، إنّ منْ له إلى المملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة ، ما يطلب للدنيا والحظ شيئًا ، إنما يطلبه للدين والعقيدة ، فاستجاب الله له ، فانظر

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢٠٦) .

إلى يحيى .

﴿ **إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا** ﴾ .

[إن الله هو الذي سمّاه ، ولم يكل تسميته إلى أبيه . وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى][1] ما أظن أن أحدًا من البشر حازها سواه .

قال ابن عباس : لم يسم يحيى قبله غيره . وقال أيضا : هل تعلم له مثلًا أو شبهًا ، يحيى مسمى بصيغة الدوام أما ترى إلى أنه مات شهيدًا .

﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ والكتاب هو التوراة . يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة ؛ لأن مشهد النداء رائع عظيم يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا ، فها هو ذا أول موقف ليحيى موقف انتدابه لحمل الأمانة الكبرى .

﴿ **وآتيناه الحكم صبيًّا** ﴾ فهمًا وعلمًا ، وجدًّا وعزمًا وإقبالًا على الخير ، وانكبابًا عليه ، واجتهادًا فيه وهو حدث صغير .

قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقنا .

وقال أبو حياة : النبوة .

آتاه الحكم صبيًّا ، فكان فذًّا في زاده ، كما كان فذًّا في اسمه وفي ميلاده ، فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا .

﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ قال ابن عباس : رحمةً من عندنا . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا . موهبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ، إنما هو مطبوعٌ عليه ومطبوع به .

وقال عكرمة : محبةً عليه . وكذا قاله ابن زيد ، وقال مجاهد : وتعطفًا من ربه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيمًا من لدنا .

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢١٤) .

﴿ وزكاة ﴾ قال ابن عباس : طَهُر فلم يعمل بذنب .

وقال ابن كثير : الطهارة من الدنس والآثام والذنوب .

وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح .

بل قالوا : إنه لم يهم بمعصية أبدًا ، والله أعلم .

﴿ وكان تقيا ﴾ قال مجاهد : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإن كان ليبكي من خشية الله ما لو كان القار على عينيه لخرقته دموعه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرًى في وجهه[١] .

وقد ذكروا أن يحيى - عليه السلام - كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعم منك يا يحيى .

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه ، فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا ؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبرًا ، وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني ، أنا أطلبك من ثلاثة أيام ، وأنت في قبر قد احتفرته قائمًا تبكي فيه . فقال : يا أبت ، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين . فقال له : ابك يا بني . فبكيا جميعًا . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد نحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألَّا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل[٢] .

---

(١) زيادات الزهد لابن المبارك .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير (٢ / ٤٩) .

﴿ وبرًّا بوالديه ﴾ كثير البِرِّ لهما ، محسنًا إليهما ، لطيفًا بهما ، لين الجانب لهما .

لقد كان ميلاد يحيى برا بوالديه أيضًا والله ، فقد أصلح الله لزكريا زوجه ، فجعلها ولودًا بعد العقم ، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد أو جعلها حسنة الخُلق كما قال عطاء . وهذه سنة الله في إكرام أنبيائه وأوليائه .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ قال قتادة : إنما سمي يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان .

﴿ مصدقًا بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى بن مريم . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الشعثاء ، والسدي ، والربيع بن أنس ، والضحاك .

قال الربيع بن أنس : هو أول من صدّق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : على سنته ومنهاجه .

﴿ وسيدًا ﴾ قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وسعيد بن جبير : الحكيم .

وقال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة .

وقال ابن عباس والثوري : الحكيم المتقي .

وقال مجاهد : هو الكريم على الله .

﴿ وحصورًا ﴾ حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن ؛ تبتلًا وانقطاعًا لعبادة الله ، وكان ذلك جائزًا في شريعته .

أما إنه محصور عن النساء ؛ لأنه عِنِّين ، لا يقدر على إتيانهن فليس بصحيح ؛ لأن العنة عيب ونقص في الرجال ، وليس من فعله حتى يثني الله عليه بها .

﴿ ونبيا من الصالحين ﴾ هذه بشارة ثانية بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى ، كقوله تعالى لأم موسى : ﴿ إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ [القصص : ٧] ، بشر بولد ، وبشر بنبوته .

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا ﴾ قال سفيان بن

عيينة : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد ، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه ، ويوم يموت ، فيرى قومًا لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم . قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا ، فخصَّه بالسلام عليه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ .. أي أمان له .

قال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف من الأمان ، فالأمان مُتَحَصَّل له بنفي العصيان عنه ، إنما الشرف في أن سَلَّم الله عليه ، وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر إلى الله .

لم يذنب قط ، ولم يهمّ يحيى بذنب .

خاف الله خوفًا جعله ينفرد في البراري ، حتى ضرب بخوفه المثل ، فأمنه الله في مواطن الخوف .

والجزاء من جنس العمل .

ما همّ بخطيئة ، وكان حصورًا .. وكان فذًا كاسمه ، ومولده ، وحياته .

سلم لله ، فسلم الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

ما كان للدنيا طرفة عين ، فسلم الله عليه .

عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى – عليهما السلام – التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي ، أنت خير مني . فقال له : استغفر لي فأنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمت على نفسي ، وسلّم الله عليك ، فعُرف والله فضلهما[1].

قد كان سلام الله على يحيى خيرٌ من سلام عيسى على نفسه .

وعيسى نبي ورسول من أولي العزم خير من يحيى ، ولكن السلام الذي

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٤٥) .

خصّ به يحيى أفضل ، فسلام عليه يوم ولد ، وسلام عليه يوم مات ، وسلام عليه يوم يبعث حيا .

○ عيسى عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ...** ﴾ الآية [المائدة : ٧٥] .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض ، وسياحته فيها ، وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ؛ لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض سياحة في الله ، وفرارا بدينه ، وسجل هذا الاسم في كتاب الله فكان جزاءً عاجلًا في دار الدنيا من جنس عمله .

وقال تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ...** ﴾ [الحديد : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ [البقرة : ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا . وجعلني مباركًا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا . وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًّا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** ﴾ [مريم : ٣٠- ٣٤] .

ما نطق ببراءة أمه أول ما نطق ، وقد قذفوها وهي الطاهرة العفيفة ، وإنما نطق بعبوديته لله ، فصلاة الله وسلامه عليه .

وقال تعالى في حقه : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون .**

ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولًا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقًا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾
[آل عمران : ٤٥ - ٥١] .

اليهود عليهم لعائن الله أعداء نبي الله عيسى وأمه الذين قال الله فيهم :
﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينًا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ﴾ [سورة النساء : ١٥٦ -١٥٩] .

كانوا يصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، وهو الوجيه عند الله في الدنيا والآخرة ، وَوَشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة - داود بن نورا - فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة[١] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط ، فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنّه عيسى فصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلّم لليهود عامّة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالًا مبينًا فاحشًا بعيدًا .

قال ابن عباس : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ،

---

(١) الكوة .

وفي البيت اثنا عشر رجلًا منهم من الحواريين يعني : فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً. فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم أيكم يلقى عليه شبهي ، فيقتل مكاني ، فيكون معي في درجتي ، فقام شاب من أحدثهم سنًّا ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ؛ فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله . وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[1] [الصف : ١٤] .

نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام - آخر الزمان

في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال ، ثم نزول عيسى - عليه السلام - قال ﷺ : « إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[2] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قَطَر ، وإذا رفعه تحدّر منه جُمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه » -

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢ / ٨٥ - ٨٦) : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي ، نحوه .

(٢) المهرودتان : لابس مهرودتين ؛ أي ثوبين مصبوغين بورس ، ثم زعفران .

أي يطلب الدجال - « حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »[١] .

قال الله تعالى : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ قال : هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة[٢] .

عن ابن عباس : ﴿ **وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾ .

قال : قبل موت عيسى بن مريم .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح[٣] .

قال الحسن : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

روى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل ابن مريم حكمًا عدلًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ .

وروى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذ أنزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٤ / ٢٢٥٠) .

(٢) مسند أحمد ، قال الشيخ أحمد شاكر ، وقال : إسناده صحيح حديث رقم ٢٩٢١ .

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ١٣١) . وأثر ابن عباس صححه الحافظ في الفتح (٦ / ٤٩٢) .

وروى مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم : صل لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمة الله لهذه الأمة » .

وقال ﷺ : « الأنبياء إخوة لعَلَّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه »(١) .

فائدة :

أنكر قوم نزول المسيح في آخر الزمان ، وردّوا الأحاديث الواردة في ذلك ، وقالوا : إنه لا حجة فيها ؛ لأنها أحاديث آحاد ، وأنكروا أيضًا رفع عيسى ببدنه.

ومسألة رفع عيسى وهل هو ببدنه أو بروحه ؟ مسألة خلافية بين العلماء ولكن الحق أنه رفع ببدنه وروحه ، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين كالطبري ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابن كثير .

أما الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام فمتواترة .

صرّح بذلك الطبري في تفسيره (٣ / ٢٩١) ، وابن كثير في تفسيره (٧ / ٢٢٣) ، وابن حجر ، وصديق حسن خان في الإذاعة ، والشيخ صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود والشيخ أحمد محمد شاكر في حاشية تفسير الطبري (٦ / ٤٦٠) ، وحاشية مسند الإمام أحمد (١٢ / ٢٥٧) ، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد رواه أكثر من خمسة وعشرين صحابيا ، رواه عنهم أكثر من ثلاثين تابعيًا ، والشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه التصريح بما تواتر في نزول المسيح .

---

(١) الحديث صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وصححه الشيخ شاكر في هامش عمدة التفسير (٤ / ٣٦) ، وصدر هذا الحديث . رواه البخاري ، ورواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

ما الحكمة في نزول عيسى عليه السلام ؟

الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى – عليه السلام – فبيّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، ويقتل رئيسهم الدجال ، ورجح هذا الحافظ ابن حجر[(١)] على غيره .

أساء اليهود إلى نبي الله عيسى ما وسعهم ذلك ، وآذوه ، ولما أراد اليهود قتله لم يمكنهم الله من قتله ، بل إنه الذي يقتلهم آخر الزمان .

والجزاء من جنس العمل .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال من يهودية أصبهان ، معه سبعون ألفًا من اليهود »[(٢)] .

وروى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة »[(٣)] . وفي رواية للإمام أحمد : « سبعون ألفًا عليهم التيجان » .

« يلحق عيسى عليه السلام بالدجال عند باب لد ، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح ، فيقول له عيسى عليه السلام : إن لي فيك ضربة لن تفوتني ، فيتداركه عيسى ، فيقتله بحربته ، وينهزم أتباعه ، فيتبعهم المؤمنون ، فيقتلونهم ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله . إلا الغرقد ؟ فإنه من شجر اليهود » .

وروى الإمام أحمد عن جابر – رضي الله عنهما – أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم .. » فذكر الحديث ، وفيه : « ثم ينزل عيسى بن مريم ، فينادي من السَّحَر : أيها الناس ! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث . فيقولون : هذا رجل جني . فينطلقون ، فإذا

---

(١) انظر فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) مسند أحمد ، قال ابن حجر : صحيح ، فتح الباري (١٣ / ٣٢٨) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن باب : في بقية من أحاديث الدجال .

هم بعيسى بن مريم ﷺ ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله . فيقول : ليتقدم إمامكم ، فليصل بكم . فإذا صلى صلاة الصبح ، خرجوا إليه . قال : فحين يرى الكذاب ينماث[١] كما ينماث الملح في الماء ، فيمشي إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي : يا روح الله ! هذا يهودي . فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله »[٢] .

كانوا يبحثون عن المسيح في كل مكان لقتله .. فالآن ينطق كل حجر وشجر إلا الغرقد .. ينادي على المسيح ليقتلهم .

ويقتل المسيحُ الصديق المسيحَ الضِّلِّيل .

يقتل مسيح الهدى مسيحَ الضلالة .

ينزل مكذبًا للنصارى ، فيظهر زيفهم في دعواهم صلبه ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام .

عظموا ما ادعوا أنه صلب عليه فيكسره المسيح .

قال ابن حجر : « يكسر الصليب » أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه[٣] .

« ويقتل الخنزير » « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية»[٤] .

روى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « ... وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وأنه لنازل ... فيهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل،

---

(١) ماث الملح في الماء : أي أذابه .

(٢) رواه أحمد ، قال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . الفتح الرباني (٢٤ / ٨٥ - ٨٦) .

(٣) الفتح (٦ / ٥٦٧) .

(٤) رواه مسلم ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام حاكمًا .

والنِّمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم »[1] .

أما حجه : فقد روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ؟ ليهللن ابن مريم بفج الروحاء حاجًّا أو معتمرًا أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا »[2] .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه لنازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، بين ممصرتين[3] ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها ، إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتُوفى فيصلي عليه المسلمون »[4] .

بماذا يحكم عيسى عليه السلام ؟

يحكم بالشريعة المحمدية ، ويكون من أتباع محمد ﷺ ، فإنه لا ينزل بشرع جديد ؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة ، لا ينسخ ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة ، ومجددًا لأمر الإسلام ، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ، أما وضع عيسى للجزية عن الكفار - مع أنها مشروعة قبل نزوله عليه السلام - فليس هذا نَسْخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا ؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى - عليه السلام - بإخبار

---

(١) مسند أحمد ، قال الحافظ : سنده صحيح . فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب جواز التمتع في الحج والقران (٨/٢٣٤) شرح النووي .

(٣) ثياب فيها صفرة خفيفة .

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٣٦٣٥ .

نبينا ﷺ ، فهو المبيِّن للنسخ بقوله لنا : « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية » .

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء ، وآخر مجدديها نبي على ملة رسول الله وشريعته ، بل آخر صحابي نبي .

قال الذهبي :

عيسى ابن مريم عليه السلام : صحابي ، ونبي ، فإنه رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وسلم عليه ، فهو آخر الصحابة موتا[1] .

* * *

---

(١) تجريد أسماء الصحابة (١ / ٤٣٢) .